تاريخ وحضارة

مجلة الحضارة الإسلامية العدد التاسع عشر -ذو الحجة 1434هـ/أكتوبر 2013م

منهج المؤرخ يحي بوعزيز
في كتابه تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية

د. الحمدي أحمد
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
جامعة وهران.

تمهيد:

يبقى موضوع المنهج من أهم المسائل التي شغلت بال الباحثين، عند تتبعهم لتطور العلوم الإنسانية وعلى وجه الخصوص التاريخ. ويعد هذا الموضوع من أبرز نتائج تطور العلوم والفكر في الفترة الحالية، إذ به خرج التاريخ من عالم الأساطير، من حيث تحديد مباحثه وصياغة قوانينه التي عرفت تأصيلا، وبذلك أصبحت له مقومات وركائز. وبفضل تطبيق المنهج العلمي في ميدان البحث التاريخي أمكن تجاوز إشكالية هل التاريخ علم أم فن؟ وبفضل جهود ثلة من المهتمين بحقل فلسفة التاريخ، وصلنا إلى مبادئ وأساليب تؤدي إلى إدراك الحقيقة التاريخية، وتوضيح عللها وأسبابها.

ويظهر المؤرخ بوعزيز في كتابه[1] هذا كثير التشبث بالتأريخ لموضوعات متنوعة والتي يجمعها متن واحد على سنة الأوائل، فمدرسة التاريخ الجزائرية في القرن الماضي أخذت معالمها الأساسية من نظام التاريخ العام أحيانا ومن النظرة التركيبية للأحداث، ومن النزعة الإقليمية عند

مؤرخي التاريخ المحلي، والظروف التي ميزت الدولة العثمانية في نهايتها بالجزائر. من هذه العناصر جميعا ممتزجة تشكلت خصائص الكتابة التاريخية عند رواد تلك المدرسة التي كان مؤرخنا يحي بوعزيز أحد أقطابها مع بعض الاختلاف والتميز.

لاشك أن تلك المؤثرات هي التي صنعت منهج هذا المؤرخ، بالإضافة إلى ظروف حياته ونشأته وثقافته ووضعه الاجتماعي لوّن منظوره التاريخي إلى حد بعيد، فهو سليل أسرة علمية متعلقة بالعلوم الشرعية، إذ حفظ القرآن في سن مبكرة ودرس الفقه والحديث واللغة العربية، وهي علوم أفاد منها كثيرا في دراسته للتاريخ وكتابه، وهي الصناعة التي استهوته بشكل خاص.وبعدما وقفت على المؤثرات العامة والخاصة في منهجه، فلنعرض لهذا المنهج كما نص عليه في كتابه موضوع الدراسة، ثم نناقش مدى التزامه به في ضوء محتوى الكتاب ذاته. فقد صرح بأن هذا الكتاب هو: ثمرة جهود متواصلة لعدة سنوات خلت من البحث والدراسة... ورتبه حسب الكيفية التالية: تعريف السودان الغربي، تتبع حركة وصول الإسلام، تحديد الدول والإمارات والممالك.

الصحراء والسودان:

ومن حسنات المنهج الذي اتبعه أنه أكد فيه الطابع العام، حيث جعل تاريخ السودان الغربي محور اهتمامه بل أضاف العديد من المسائل المتعلقة بتاريخ الصحراء. وأحجم ـ عند تناوله للمادة ـ عن إتباع طريقة بالية هي التاريخ منذ بدء الفتح الإسلامي. فصان مصنفه من تلك المعلومات الفجة

ذات الطابع الروائي والأسطوري التي تزخر بها المصنفات التاريخية التقليدية. وحتى فيما يتعلق بتاريخ السودان قبل الإسلام كرّس له صفحة واحدة ولخصها تلخيصا سريعا. ولقد أدرك أهمية دراسة الجغرافيا في فهم التاريخ فعرض لجغرافية تلك البلاد مستفيدا من كتابات الجغرافيين والرحالة.

كما عرض لفضائلها ومحاسنها وذكر من الأحاديث والأقوال المأثورة والمنتحلة في هذا المعنى ما وجده عند عبد الرحمن السعدي، ومحمود كعت، وصاحب تذكرة النسيان. ويؤخذ عليه عدم مراعاة التسلسل المنطقي في معالجة الوقائع في بعض الأحيان، فمثلا يتناول معاهدة غدامس بين الفرنسيين وإخنوخن، ثم يرجع للحديث عن مسألة اليهود التي حدثت في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري.وهو في أغلب مادته التاريخية ينقل ويلخص من تاريخ الفتاش، وتاريخ السودان وغيرهما، كما أنه يعتمد على نيل الابتهاج، ومناهل الصفا في عرضه المقتضب للأحداث التي تخص نهاية القرن العاشر الهجري ومنتصف القرن الحادي عشر. مع إغفاله لحسنات المنهج، كنسبة الروايات إلى ذويها وهو ما يمكن تسميته بالإسناد وغالبا ما يكتفي بكلمة قيل[2] أو يقال.[3] ولا يفوته أيضا تسطير أخبار الفلانيين وحملات الحاج عمر الفوتي وممالك البامبارا، وحركة الأمير ساموري توري، والشيخ الأمين الكانيمي. وقبل ذلك الحملة السعدية وتنصيب القادة بتنبكتو وعزلهم ووفاتهم.

والملاحظ أن المرحوم بوعزيز في كتابه يكثر من النصوص الموجودة في المدونات الحولية السابقة بالإضافة إلى نزهة الحادي لمحمد الصغير اليفريني دونما نظر أو روية، وقد قاده ذلك إلى التردي إلى مزالق عديدة منها ذكره لوفاة

أحمد بابا بأنها كانت سنة 943هـ / 1524 م. والإجماع واقع على أن وفاة أحمد بابا كانت سنة . وكذلك عند حديث عن المصلح المغيلي يقول بأنه تعرف: على الرحالة المصري جلال الدين السيوطي لدى الأسقيا محمد الأول الكبير. والثابت أنه التقى به بمصر أثناء رحلته إلى الحج رفقة عمر الشيخ.وأعتقد أن أسلوب المعالجة لمواضيع عديدة في مجال زمني ومكاني واسع ورصد أحداث مجردة دونما صلة أو رابطة تجمعها جعلت الكتاب مثقلا جدا، وهو أمر أدى إلى فقر المنهج التاريخي الذي اتبعه، ورغم هذا الأمر فإن يحي بوعزيز ظهر كمؤرخ واسع المعرفة، فهو يستقي المادة التاريخية من مصادرها الأصلية، فقدم بذلك إضافة يستحق من أجلها أن تخلد ذكراه.وتظهر غيرته الإسلامية الكبيرة من خلال دفاعه عن الخلافة العثمانية، وهجومه على مخالفيها مثل السعديين في المغرب الأقصى. فتحت عنوان سماه: أطماع سلاطين المغرب الأقصى في بلاد الصنغاي. يتحدث عن العلاقات المغربية السودانية ويستطرد في ذكر تفاصيل الدخول السعدي للسودان ويطيل الكلام في هذه النقطة، حتى أنه يهتم بالمعلومات التفصيلية مثل عدد القوات والعتاد الحربي، لكنه لا ينتقد هذا الاستيلاء بحيث تشعر بأن العنوان لا يطابق المعطيات.

استيلاء السعديين على تنبكتو:

يحاول الباحثون أن يتناولوا المظالم ويصفوا الأعمال التي ارتكبها الجيش السعدي بالسودان الغربي، فقد خربوا بلاد التكرور واستأصلوا شأفتها.[4]ويجب أن أشير أن العلاقات بين السعديين وسلاطين سنغاي ترجع

إلى عهد أسكيا داوود، حيث بعث السلطان أحمد المنصور وفدا إلى الأسكيا يطلب منه تسيلم خراج معدن تغازى لمدة عام واحد. فاستقبل الأسكيا داوود الوفد بكل حفاوة وتكريم، وأرسل للسلطان المغربي هدية كبيرة من الذهب، تمثلت في «عشرة آلاف مثقال ذهب».[5] فتعجب المنصور من سخائه، وجود كرمه. وكانت تلك الهدية سبب المودة بينهما، ولما توفي أسكيا داوود، حزن المنصور لموته، وعزاه أكبر قادته وجنوده.وفي عهد أسكيا إسحاق، بدأت تطلعات سلطان المغرب من جديد نحو السودان الغربي، وأفتى شيوخ المغرب بأحقية وضع يد (الإمام) على المعادن بتلك الجهة. وبعث المنصور برسالة تتضمن خطابا طويلا، مع فتاوى العلماء إلى الأسكيا، ودعاه إلى تنظيم تجارة ملح تغازى والذهب بين المغرب والسودان، من أجل الاستعانة بهما على حرب الكفار. غير أن الأسكيا رفض ذلك، ورد عليه: «أنت أمير ناحيتك، وأنا أمير ناحيتي».[6] وأعطى للوفد المغربي هدية بسيطة، من جملة ما جاء فيها نعلين من حديد![7]ولما وصل الوفد إلى المنصور، سلمه الهدية وأعلموه بما جرى بينهم وبين أسكيا إسحاق من حديث، فجمع السلطاني السعدي، أعيان دولته وأهل الرأي والمشورة، وأخبرهم بالأمر وكان يوم اجتماعهم يوما مشهودا، وأشاروا عليه: «بالبغي في الأرض، والتسلط على البلاد السودانية».[8]

وأدرك الأسكيا إسحاق أن الأمور تسير نحو التوتر مع الدولة السعدية، فأرسل ألفين من التوارق، وأصدر لهم الأوامر بأن يغيروا على آخر بلاد درعة إلى جهة مراكش، دون أن يقتلوا أحدا فأغاروا على أحد الأسواق،

وأخذوا ما فيه من سلع، ورجعوا كما أمرهم. وجعل المنصور يستعد ويعدّ العدة فما جاءت سنة 976 هـ / 1569 م، حتى كان الجيش السعدي جاهزا، وفي اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة 998 هـ / 1589 م، تحركت الجيوش من مراكش، ونزلت بوادي تانسيفت،[9] وبلغ عددها اثنين وعشرين ألف رجل، بقيادة جودر،[10] ومحمود[11] بن زرقون،[12] ويساعدهما جماعة من خيرة أعيان الدولة. و«على رأس المائة الحادية عشر، دخل جنود أحمد الذهبي إلى تنبكتو»[13] وبالضبط في المحرم سنة 999 هـ / 1590 م، وكان قائد الحملة يحمل رسالتين : واحدة للشيخ أحمد بن آد،[14] والأخرى للقاضي عمر بن محمود بن عمر بن أقيت.[15] وحثهما على لزوم الجماعة. وخص المنصور ابن آد في رسالته بعبارة: «فانظر حال السلطان وصلاحه، سبحان من خص من شاء بما شاء»[16] ولقد ركز السلطان السعدي على هاتين الشخصيتن، دون سواهما على اعتبار أن عائلة ابن آد لها وزنها الروحي في المنطقة، فأهالي السودان يتبركون بهم، ويسيرون وفق تعليماتهم، فهم يتزعمون المجتمع ويدافعون عن حقوق الناس. بالإضافة إلى أن القاضي له مكانة متميزة، فهو محل ثقة ومشورة.وعندما علم إسحاق أسكيا بوصولهم إلى تنبكتو وعزمهم على مغادرتها إلى جاو، حشد لهم من جيش السودان ما يقارب المائة ألف، ومن التوارق أربعة آلاف. وكانت أسلحتهم: «السيوف، والرماح، والحراب».[17] وبدأت المعركة واستمرت من الضحى إلى العصر،[18] وكانت غير متكافئة من حيث السلاح، وانهزم الجيش السوداني وفر إسحاق من الميدان، عبر نهر النيجر، ولحق به: «ابن زرقون وأدركه، وأخذ كل ما عنده من مال».[19] غير أنه لم يتمكن من قتله، فقد هرب إلى الصحراء حيث

مات.ورجع محمود بن زرقون من جاو وترك بها جودر، وعند وصوله إلى تنبكتو، شيد قصبة وأسكن فيها الرماة. وأرسل نصف الجيش للمنصور السعدي، مع هدية كبيرة فيها ما لا يحصى، وهي: «ألف ومائتان من أفضل الرقيق جواري وغلمان، وأربعون حملا من التبر، وأربعة سروج ذهبا»[20] وكتب له بإخضاع السودان الغربي. وبلغ عدد الأسرى ثلاثين ألفا، وقد استعان بهم أحمد الذهبي في جيشه، وجعلهم في مشرع الرمل[21] لمجاهدة البرتغاليين[22].

وضع السودان الغربي بعد الحملة السعدية:

ولما توفي المنصور ـ وهو صاحب فكرة غزو السودان ـ انقطع المدد عن الجيش، فاضطر الباشاوات لسد هذا الفراغ في صفوفه، بعناصر من الزنوج من أهل البلاد، لا يبلغون مبلغ جند مراكش في التدريب والكفاية. وتزوج الجند من نساء البلاد، وأنجبن عنصرا مولدا خليطا، «فاختلطت الأنساب والأحساب».[23]وهذا الجيش المختلط الذي جمع بين البربر، والزنوج، أطلق عليه لقب الرماة .[24]

وكان هؤلاء الجند ينتخبون الباشاوات الحكام الذين اتخذوا تنبكتو مقرا لهم، والتي كانت: قبل نزول هذه المحنة بها في غاية الحسن والجمال وإقامة الدين وإحياء السنة بها.[25] وعينوا بعض الولاة في بمبا، وجاو، وجني، وغدا الباشاوات ألعوبة في أيدي الجند يخلعونهم إذا شاءوا، ويولونهم إذا أرادوا. حتى لقد تولى منهم في الفترة ما بين (1076 ـ 1164 هـ / 1665 ـ 1750 م) نحو من مائة وثمانية وعشرين!

وأصبح لا همَّ للجند إلا الثراء بأية وسيلة، والمغالاة في فرض الرسوم، والمكوس، والضرائب، وشاركهم الرماة في هذا النهب، والسلب. وساءت أحوال البلاد بسبب اضطراب الأمن، وعزل الباشاوات، وانحلال الجيش وانحطاط مستواه. وبلغ ضعفالباشاوات حدا جعلهم يدفعون الجزية لملوك سيجو الوثنيين. ثم استقلت حامية جاو، وجني، وبمبا، ولم تبق للباشاوات إلا مدينة تنبكتو. ولمتخلص لهم هذه المدينة آخر الأمر، فقد اغتصب قادة فرق الجيش السلطة، وظلوا على اغتصابهم حتى آخر القرن الثامن عشر، و«ما قامت للسودان قائمة».[26]

وكانت القوافل تخرج في سيل مطرد من مدن جنوب الصحراء، والسودان، تحمل الذهب والعاج، وخام النحاس،[27] وتبيعه بأسعار مرتفعة تعود بأرباح طائلة على ملوك السودان. والباشاوات بدلا من أن يضاعفوا هذه التجارة وينموها، أساءوا إليها،[28] وأضعفها، ثم قضى عليها بسبب المغالاة في فرض المغارم، والمكوس، «فركبوا أهواءهم، ففعلوا ما تقشعر الجلود من ذكره من القبائح، والجور البواح، الذي لم يسمع بمثله».[29] وتبعا لذلك فقد اضطرب الأمن في مسالك التجارة، وساءت الأحوال كثيرا.

علاقة الجيش السعدي بالقبائل:

ولم يسيء الرماة إلى الناحية الاقتصادية فحسب، بل أساءوا أيضا إلى الناحية العلمية.[30] وتاريخهم بالسودان حافل بأنباء نفي العلماء وتشريدهم، وأحمد بابا فقيه السودان، ومؤرخها، عاش شطرا من حياته في مراكش مكرها، ووضع بعض أهل العلم في الحبس وصودرت أموالهم، وقتَلوا «منهم ما ينيف

على ستين في المسجد وهم يصلون، وقتلوا رجلا عالما من السودان وتلاميذه، وهم ذاهبون إلى المسجد يوم الجمعة بغير سبب».[31]

وهذا المجتمع السوداني الذي أصبح ضعيفا في أغلب نواحيه، صار نهبا لغارات البدو من التوارق وغيرهم من القبائل، الذين أرادوا أن يسيطروا على المراعي الخصبة في منحنى نهر النيجر. وفي سنة 1133 هـ / 1720 م، وقعت معركة بين تدمكت، وجيش الرماة، ومات من هؤلاء خمس مائة من خيرة قادتهم العسكريين، وعدد لا يحصى من الجنود. «فكان ذلك أول وهن دولة الرماة واستيلاء تدمكت على البحر، وأعاذنا الله والمسلمين من فتنة هذه المائة وما بعدها».[32] يقصد المختار بالبحر، نهر النيجر.ومكانة المؤرخ يحي بوعزيز لا ترجع فقط إلى عرضه لأغلب الممالك السودانية ـ وهو في جوهره يدور حول الصراع على السلطة ـ بل كشف عن دور العلماء والشيوخ في الإصلاح والتعليم وترشيد الحكام، وتناول أفكارهم وتحليل مشاريعهم. وألقى الضوء على تآليفهم ومظاهر الحياة الفكرية، بل تغلغل إلى ذكر المراكز الثقافية وكشف النقاب عن المعالم الحضارية، إلى غير ذلك من المعلومات التي تصور الحركة العلمية.

ولعل ما يؤخذ عليه في كتابه هو إغفاله تأريخ حياة العامة بقطاعاتها المختلفة إغفالا هاما، باستثناء العلماء فقد ترجم ـ في إسهاب ـ للأعلام وخاصة المشاهير منهم، فكان يذكر فضائلهم ويعدد مؤلفاتهم وتصانيفهم، وكثيرا ما استرسل في تلك المواضيع. وفي حين أفرد حيزا هاما من هذا الكتاب للتعرف بالزعماء وسلاطين الممالك بالسودان الغربي، نجده يضن بمجرد الإشارة إلى حياة السكان إلا ما ورد عنهم عفوا.وفي المسائل الخلافية

يلتزم المؤرخ بوعزيز الحياد من أمثلة ذلك فتوحات عقبة في السودان حيث يشير إلى أنه قيل بأنه وصل إلى بلاد التكرور، وغانة في منحنى نهر النيجر، بين النيجر والسينغال، وفتحهما ولكن هذه الرواية[33] فيها نوع من المبالغة .

الخاتمة:

وتندرج أهمية المؤرخ يحي بوعزيز كمصدر تأريخ لإفريقيا الغربية تحت موضوع موقف أقرانه من مؤرخي الجزائر، وإلى أي حد تفيد تواريخهم في دراسة تلك البلاد ذات الصلة الوثيقة ببلادنا، على أساس أنها تعتبر ـ جغرافيا ـ امتدادا لأرض الصحراء مما يترتب عليه نوع من الارتباط الأكيد بين تاريخ الجزائر وتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء وخاصة في العصر الوسيط والحديث.

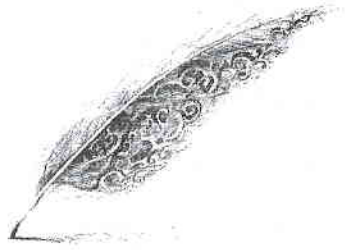

الهوامش:

1ـ يحيى بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية منمطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، دار هومه الجزائر، ط 2001.

2ـ يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص: 12

3ـ المرجع نفسه، ص: 22

4ـ المختار الكنتي، البرد الموشا فيقطع المطامع والرشا، مخطوط بحوزة فيليموسى بتمنغست بدون رقم، ج 2، ص: 9.

5ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص: 127.

6ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 8.

7ـ السعدي، تاريخ السودان، ص: 138.

8ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.

9ـ وادي تانسيفت: وجد على ثلاثة أميال من مراكش، ومنبعه من بلد دمنات، يصب فيه وادي وريكة ووادي نفيسو أودية كثيرة، ومصبه في ساحل رباط جوز. ينظر: مجهول، الاستبصار، ص: 209.

10ـ جودر باشا: هو القائد جودر قائد جيش المنصور السعدي، وهو الذي سيطر على بلاد السودان سنة 999 هـ/ 1590م، وتميز بالحزم الشديد والقوة على الحرب.

ينظر: ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج 1، صص: 233 ـ 235.

11ـ عند المختار: سعيد، وهو خطأ واضح.

12ـ محمود بن زرقون:

أحد قادة الرماة، له بسالة وشجاعة كبيرة، وهو من مماليك أبي العباس المنصور السعدي.

ينظر: ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، صص: 325 ـ 327.

13ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 9 .

14ـ أحمد بن آد:

هو ابن محمد بن أبي بكر قدم من بلدة السوق إلى كيدال، ومنها إلى أروان وهو من أوائل الذين سكنوا تلك المنطقة، وهو من الفقهاء المشهورين توفي بأروان بعد عودته من الحج سنة 1044 هـ/ 1634 م، وتولى بعده ابنه محمد الملقب باكي نأمر القضاء في أروان. ينظر: الدالي، التاريخ الحضاري لأفريقيا، ص: 224 .

15ـعمربنمحمود:

هوعمربنمحمودبنعمرأقيت،قاضيتنبكتووأحدأكبرفقهائهاوعلمائهاالذينامتحنواعشيةالغزوالسعديلل سودانالغربي،توفيمراكشسنة 1003 هـ / 1594 م. ينظر: الدالي،المرجعالسابق،ص: 254.

16ـمجهول،الجواهرالحسانفيتاريخالسودان،و10 و.

17ـالمختارالكبير،البرد،ج 2،ص: 8.

18ـمحمودكعت،تاريخالفتاش،ص: 152.

19ـالمختارالكبير،البرد،ج 2،ص: 8.

20ـمحمودالأروانى،الترجمان،و 11 و.

21ـمشرعالرمل:

محلجعلهاالسلاطينخاصابالعبيدوعائلاتهمبالقربمنسيديسليمان،ومنمشرعالرمليوزعالعبيدعلىالحامي اتويرجعونديوريايإلىبومركزهم،وتكاثرعددهمبعدذلك. ينظر: عبدالعزيزبنعبدالله،الموسوعة،ج 2،ص: 346 .

22ـالمختارالكبير،البردالموشا،ج 2،ص: 9.

23ـالمصدرنفسه،ج 2،ص: 11.

24ـالسعدي،تاريخالسودان،ص: 120.

25ـكعت،تاريخالفتاش،ص: 178.

26ـالمختارالكبير،البردالموشا،ج 2،ص: 9.

27ـزبادية،الحضارةالعربية،ص: 33.

28ـحسنأحمدمحمود،الإسلاموالثقافةالعربيةفيأفريقيا،ص: 216.

29ـالمختارالكبير،البردالموشا،ج 2،ص: 10.

30ـأحمدباباالتنبكتي،كفايةالمحتاجبمعرفةمنليسفيالديباج،مخطوطخزانةالشيخبابيأولف،بدونرقم،و 1 و.

31ـالمختارالكبير،البردالموشا،ج 2،ص: 9.

32ـالمختارالكبير،البردالموشا،ج 2،ص: 10.

33ـيحيىبوعزيز،المرجعالسابق،ص: 12